مُقَاوَمةُ التَّجزِئةِ والتَّفرِقَةِ والشَّرْذَمَة

مُنير فاشه

تمزيق المجتمع وسلب قدراته: بحجة التطوير وحماية الحقوق

كان أول القوانين التي وضعها الإنكليز لدى احتلالهم فلسطين بعد "الحرب العالمية الأولى"،[1] يتعلق بزيارة الأهالي للأماكن المقدسة في القدس، ووضعوا حراساً لذلك، بحجة ضمان حقوق جميع الطوائف! تمّ ذلك بوجه رئيسي بالنسبة للمسجد الأقصى وساحته. هذه القاعدة -تمزيق المجتمع بحجة حماية الحقوق- هي القاعدة الرئيسية التي اتبعتها بريطانيا وفرنسا في غزوهما للعالم، وثم تبعتهما أمريكا وإسرائيل.

كانت ساحة الأقصى قبل الاحتلال الإنكليزي ملتقى جميع الناس، فيها يلتقون بشكل حر، ويتحادثون دون وصاية، ويلعب الأطفال والصغار كما يحلو لهم . . . كان لقاء غنياً بشكلٍ يومي، يُجدل من خلاله نسيج اجتماعي معرفي روحي. ما كان سائداً في تلك الساحة، هو تجاور بين الأديان وليس تحاور بينها - وشتان بين الاثنين، فكلمة "تجاور" تستمد معناها من حياة الناس، وتعكس صوراً في أذهانهم،[2] وتجدل نسيجاً فيما بينهم، بينما كلمة "تحاور" تستبدل عادة الحياة بكلمات ومفاهيم، تنتهي غالباً بتمزيق النسيج بين الناس. إستراتيجية الانكليز، إذن، باختصار، هي: شرذمة المجتمع بحجة المحافظة على الحقوق، ومن ثم المساعدة في تقديم "الدواء"، ألا وهو التحاور الذي عادة يعمّق تمزيق النسيج بين الناس! كان الناس في ساحة الأقصى أشبه ما يكونون بأزهار في حقول طبيعية، كل زهرة تضيف جمالاً وغنى إلى المكان وإلى الآخرين. جاء الإنكليز، ورأوا خطورة تلك الروح على مشروعهم للسيطرة والسلب، فوضعوا قانونا[3] -كان من أول القوانين التي وضعوها- حول من يحق له الدخول ومتى، ما غيّر طبيعة المكان وعلاقة الناس به وعلاقة الناس بعضهم ببعض.

وضع الإنكليز حدوداً على الحركة، ووضعوا حدوداً على الفكر والمعرفة والكلمات والمعاني، ما حدّد وحكم إدراك الشخص لذاته ولعلاقته مع من وما حوله. كذلك وضعوا حدوداً للخيال، بالنسبة لما هو ممكن وما ليس بممكن (والذي يتمثل في السؤال الشائع حالياً: ما هو البديل؟). أما المؤسسة المسؤولة عن وضع حدود على الحركة، فكانت المؤسسة السياسية بأدواتها الأساسية: الشرطة والعسكر؛ والمؤسسة المسؤولة عن وضع حدود على الفكر والمعنى والإدراك والخيال فهي المؤسسة التعليمية بأدواتها الأساسية: المنهاج والتقييم (والتي ساندتها فيما بعد المؤسسة الإعلامية). ويتم هذا عن طريق احتكار المؤسسة السياسية للعنف، واحتكار المؤسسة التعليمية للمعرفة والتعلم والمعنى وقيمة المرء. وتتمثل الحدود في الحالتين بكلمات تبدو براقة مثل "الهوية" في حالة المؤسسة السياسية، وكلمة "تخصص" في حالة المؤسسة التعليمية.

بعبارة أخرى، تتم عملية تمزيق الإنسان والمجتمع بشكل متداخل ومترابط على مستويين رئيسيين: على المستوى المحسوس في الواقع الذي يعيش فيه الناس، وعلى مستوى الفكر والإدراك والعلاقات. في الحالتين، تتم العملية عن طريق وضع حدود من قبل سلطة مكونة من مؤسسات ومهنيين.[4] (ربما يكون من الجدير بالذكر هنا أن عمل المهني يرتبط -لغوياً وفكرياً وعملياً- بالإهانة: فهو يُهان من قبل من هم أعلى منه في السلطة، ويُهين من هم دونه. أذكر هذا للدور الكبير للمهنيين والخبراء في عملية التمزيق السائدة في العالم المعاصر).

ترتبط عملية التمزيق بعملية أخرى هي عملية السلب: سلب الناس من مواردهم (بما في ذلك الأرض) ومعارفهم وقدراتهم الطبيعية (مثل القدرة على التعلم التي ننسى أنها قدرة بيولوجية)، والقدرة على إدارة شؤونهم اليومية، وقدرتهم على التغيير، وقدرة الجسم على الشفاء.[5]

ما يميّز ما نطلق عليه عادة اسم "غرب" هو الجمع بين التفرقة والتجزئة والتمزيق والشرذمة والسلب من جهة، وادّعاء المساعدة وحماية الحقوق من جهة ثانية (سواء أنبع الشعور بالمساعدة من نية حسنة أم سيئة). ما يهمنا هنا هو دور التعليم في هذه العملية، الذي كان من أولى الأدوات وأكثرها فعالية التي جمعت بين التمزيق والسلب وادّعاء فعل الخير. فشرذمة المعرفة والفكر والإدراك تتم يومياً داخل غرف التدريس في معظم المدارس حول العالم، إن لم يكن في جميعها، تحت ادّعاء التخصص والتطور والتقدم. كما تتم عملية التمزيق على مستوى العلاقات في المدارس من خلال قياس الناس والمجتمعات حسب مساطر رأسية تدعي الموضوعية والحيادية والعالمية،[6] وتتم التفرقة والعنصرية على المستوى الاجتماعي عن طريق الشهادات التي يحملها الشخص، وعن طريق التمييز بين من يعرف القراءة والكتابة ومن لا يعرف، والنظر إلى الأمي وكأنه أقل أو أدنى درجة ويحتاج إلى مساعدة.

كثير مما يحدث حول العالم يبدو علمياً ومهنياً، وكأن الغرض منه مصلحة الناس ومعاملتهم بالمساواة. ولكن ما يحدث هو في الواقع بمثابة جرثومة تدخل الإنسان والمجتمع وتمزقهما من الداخل، تماماً كما تفعل جرثومة الإيدز التي تدخل الجسم وتقتل مناعته الطبيعية ضد ما يهدده. بعبارة أخرى، أول محاولة تمزيق ناجحة، على مستوى الإدراك وطرق العيش والفكر والعلاقات، كانت من خلال إنشاء مدارس، وهي حقيقة مغيّبة عادة.

مقاومة التمزيق والتخريب على الصعيدين المرئي المحسوس وغير المرئي

قاوم العرب (وبخاصة في فلسطين) محاولات التمزيق منذ علموا بمعاهدة "سايكس-بيكو" بعد الثورة البلشفية في روسيا. شملت المقاومة في فلسطين دائماً المقاومة على الصعيدين، إلا أنه لسبب ما، يتم التركيز دوماً على البعد السياسي والعسكري أكثر من الصعيد الثاني. وفي رأيي أن غياب أو تغييب المقاومة على الصعيد الثاني يجعلها تعرج أو فاقدة لقدرتها على الاستمرار.

لم تكن هناك، مثلاً، مقاومة بين الفلسطينيين لفكرة التعليم الرسمي أو لهيمنة المؤسسات على حياة الناس. كانت هناك مقاومة للتعليم الذي فرضه الإنكليز في فلسطين على المستوى السياسي بحكم أنه كان منحازاً للمشروع الصهيوني، ولكن لا مقاومة لفكرة احتكار مسار أحادي للتعلم، وفرض منهاج واحد لا علاقة له بحياة الناس على جميع الطلبة، وتقييمهم حسب امتحان يأتي من لندن . . . ربما كان الاستثناءان الوحيدان هما: مؤتمر يافا الذي دعا له فلاحو فلسطين العام 1929، وأثاروا فيه دور التعليم الذي أدخله الإنكليز في تمزيق العلاقات داخل العائلة والمجتمع، وتمزيق علاقة الصغار مع الأرض؛ أما الاستثناء الثاني فكان في الفترة الأولى (خلال العام 1988) من الانتفاضة الأولى من خلال بعض لجان الأحياء، الذي هوجم بشراسة من قبل سلطات الاحتلال.[7]

على الرغم من ذلك، كانت هناك مقاومة مستمرة (على المستوى العميق) بشكل طبيعي تلقائي عن طريق استمرار العديد من الناس العيش حسب طرقهم، وهي التي حافظت على بقاء المجتمع واستمراره في المناطق المختلفة. هذا ما فعله الفلسطينيون في فترات وأماكن مختلفة، وهذا ما فعلته أمم أخرى مثل السود في أمريكا، والسكان الأصليين في الأمريكتين (وبخاصة في أمريكا الوسطى والجنوبية).

لعل أبرز من قاوم المدارس الغربية في فلسطين كان خليل السكاكيني، فبنى "المدرسة الدستورية" في القدس العام 1908 كرد فعل على مدارس الإرساليات الغربية. كذلك، انتقد السكاكيني كثيراً من الممارسات في المدارس الغربية (مثل التركيز على العلامات والنواحي الآلية)، إلا أن نقده لم يمس فكرة التعليم نفسها، كما فرضها الإنكليز في فلسطين. . . لا يزال عدم التوازن هذا موجوداً حتى هذا اليوم، إذ

من ورشة "التعبير بالرسم والموسيقى".

نرى -مثلاً- مظاهرات ضد الجدار الإسمنتي على الأرض، ولكن لا نسمع عن مظاهرات ضد الجدار الذي يُبنى على مستوى العقل والشعور والإدراك من قبل المؤسسات التعليمية والإعلامية والسياسية.

أود أن أعيد التأكيد على أن أية مقاومة لا يترافق معها مقاومة الشرذمة والتمزيق والسلب والتغييب ومقاومة الملهيات وقياس الناس حسب مسطرة رأسية تدعي الموضوعية، ومقاومة احتكار المؤسسات لنواحي الحياة المختلفة، ومقاومة هيمنة تجريدات لا تستمد معانيها من حياة الناس، تبقى مقاومة تعرج، أو يصبح من السهل تجييرها إلى أمور بعيدة عما وُجدت أصلاً لمقاومته.

عقد السبعينيات والانتفاضة الأولى

أغنى وأكثر الفترات إلهاماً التي عشتها كان عقد السبعينيات والانتفاضة الأولى في الضفة الغربية. من بين ما ميّز هاتين الفترتين هو معنى المقاومة الذي تجسد في السؤال الذي كان يحرك الناس: "ماذا أقدر أن أفعل، وضروري القيام به؟". مقابل السؤال الذي ميّز عصر التنمية ونمط الاستهلاك الذي بدأ يحرك الناس خلال عقد الثمانينات، وزاد كثيرا بعد العام 1993، ألا وهو: "ماذا أحتاج، وكيف أحصل عليه مهما كانت العواقب؟"؛ أي تمثلت المقاومة خلال فترتي السبعينيات والانتفاضة الأولى، ليس برفض العيش حسب نمط الاحتلال، والتعبير ضده بشتى الأشكال فحسب، وإنما أيضاً في قيام كل شخص بما يقدر أن يفعله ويحبه ويحسنه، بحيث تجمعت جهود عديدة ومتنوعة، خلقت زخماً.

أخذت المقاومة، خلال عقد السبعينيات، أشكالاً متنوعة وعديدة على المستوى الثقافي والتعليمي، إلا أنها -كما يظهر- لم تكن مرئية للمثقفين والمهنيين والسياسيين، بدليل أن المقالات، مثلاً، التي نُشرت في مجلتي **شؤون فلسطينية** و*Journal of Palestine Studies* في الفترة بين العامين 1967 و1993، لم تعكس الغنى والإبداع والإلهام التي ميزت ما كان يحدث على الأرض، من الناس وبين الناس، فيما يتعلق بالتعلم[8] . . . لقد اقتصرت تلك المقالات على ما كان يحدث على المستوى السياسي والعسكري. أما ما كان يحدث في العمق، بالنسبة للمقاومة، في فترة عقد السبعينيات، والتي اتخذت أشكالاً متنوعة من الأعمال العديدة التي قام بها أناس دافعيتهم من داخلهم ومن تفاعلهم وتجاوبهم مع نبض الحياة حولهم، فقد كان غائباً. ما ميّز تلك الأعمال كان النسيج الذي كان يُجدل بشكل تلقائي، ليس بين الناس فحسب، وإنما أيضاً بين الناس والثقافة والأرض، ومن بينها العمل التطوعي الذي عمّ الضفة الغربية، ودخل الجامعات كمتطلب للتخرج، ومن بينها أيضاً الفرق المسرحية والنشاطات المتنوعة داخل المدارس والجامعات وخارجها. لم تكن هناك فضائيات تمارس "الجريمة الكبرى" التي تقترفها يومياً في الوقت الحالي، ألا وهي تحويل الناس من فاعلين إلى مشاهدين، ولم يكن هناك ما يمزق أفكارهم وعلاقاتهم؛ سواء من مؤسسات غير حكومية أو فصائل سياسية، فما كان يجمع الكل هو قيام كل شخص بما يقدر عليه كتعبير عن حياته وعن مقاومته للاحتلال. كذلك الحال بالنسبة للانتفاضة الأولى حين أغلقت سلطات الاحتلال جميع المؤسسات، ولم يبقَ من البنى في المجتمع إلا البنى التي لها جذور عميقة في الحياة والتقاليد (العائلة والحي والجامع والكنيسة) التي تفعّلت جميعها، وبوجه خاص الأحياء والجوامع، حيث أصبحت الأماكن الرئيسية التي جدلت نسيجاً رائعاً بين الناس.

أخذت مقاومة إغلاق المدارس خلال الانتفاضة الأولى شكلين: كان الأول المطالبة بفتح المدارس والجامعات، وكان الثاني قيام أشخاص (وبشكل خاص من خلال لجان الأحياء) بالتعليم، كلٌ على طريقته. لم تكترث إسرائيل بالشكل الأول، ولكنها كانت شرسة جداً ضد الشكل الثاني، ما حدا بي إلى كتابة مقال حمل العنوان: "حرية الفكر والتعبير أم تحرير الفكر والتعبير؟".[9]

قلت إن أكثر أنواع المقاومة جذرية يكمن في مقاومة عملية التمزيق، ليس على مستوى الناس والمجتمع فحسب، وإنما أيضاً على مستوى الفكر والمعرفة والإدراك، كما يكمن في مقاومة سلب ما لدى الناس والمجتمعات من قدرات ومقومات. من هنا، يشكّل جدل نسيج بين الشخص مع ذاته ومع الناس والطبيعة والثقافة من حوله، وبين المذاهب المختلفة في المعتقدات والمعارف وطرق العيش، وأيضاً البناء على ما هو متوفر وجميل ومعافى وملهم في الأشخاص والمجتمع، أهم أنواع المقاومة. أعود لأقول إن ما ميّز السبعينيات والانتفاضة الأولى هو مقاومة التجزئة والتفرقة والشرذمة عن طريق تعميق النسيج بين الناس، وقيام كل شخص بما يمكنه القيام به، وبشكل يتوافق مع ما يقوم به آخرون. لم تكن هناك منافسة بل كان تعاون. وفي اعتقادي أن السبب الرئيسي في ذلك كان غياب مموّلين، وبالتالي غياب مؤسسات غير حكومية تتنافس على حفنة من المال. لهذا السبب، فإن التعبير عن روح السبعينيات، وكيف تجسدت، هو أمر مهم جداً في هذه المرحلة بالذات.

دور الثقافة ونمط الحياة في المقاومة

عملية التخريب تأخذ شكلين: تخريب التربة الأرضية وتخريب التربة الثقافية (واللتين تنعكسان على عافية الإنسان والمجتمع والطبيعة). تحدث عملية تخريب التربة الأرضية من خلال أنماط الحياة التي نكتسبها (مثل استعمال السيفون للتخلص من فضلات الإنسان، إذ أن 40% من المياه النقية تُستعمل لنقل فضلات الإنسان! ما يعني أننا نخسر الماء ونخسر الفضلات التي أخذت من التربة، وبالتالي من المفروض أن تعود إليها)، ويحدث التخريب الثقافي عن طريق تجريدات لا تكوّن صوراً في الذهن، ولا تنبع معانيها من حياة الناس، وعن طريق احتقار الذات واعتبار المدنية الغربية أرقى بشكل مطلق من الحضارة العربية.

ذكرت سابقاً أن المقاومة في فلسطين -كما في الدول العربية- كانت، بشكل رئيسي، ضد التجزئة السياسية والجغرافية والطائفية، ولكنها لم تكن ضد تجزئة الفكر عن طريق المؤسسة التعليمية، أو ضد سلب القدرات، أو ضد التفرقة الناتجة عن قياس الناس . . . لم تصل إلى مقاومة دور التعليم الرسمي في تمزيق الإنسان من الداخل، وتمزيق النسيج في المجتمع. حتى السكاكيني -كما سبق وقلت- الذي ثار ضد التعليم الإنكليزي وأنشأ مدارس جسدت روحاً ومبادئ رائعة بالنسبة لما يحدث الآن، إلا أن مقاومته لم تلمس دور التعليم الرسمي في تخريب

الإنسان والمجتمع على الصعيدين الداخلي والخارجي، وسلبهما قدراتهما الطبيعية.

تشمل المقاومة على الصعيد الثقافي مقاومة استعباد الأجهزة والآلات لنا (مثل مقاومة مشاهدة التلفزيون، ومقاومة التواصل عبر الموبايل كوسيلة رئيسية، واستعادة التواصل الشفهي -وجهاً لوجه- كوسيلة أساسية للتواصل بين الناس...)؛ كذلك، تشمل المقاومة على الصعيد الثقافي إعادة النظر في الكلمات التي نستعملها وفي معانيها، كأمر ضروري في استعادتنا لإدراكات أقرب إلى الواقع. ومن بين الكلمات التي من الضروري إعادة النظر في تاريخها هي كلمة "نكبة" نفسها، إذ أن السؤال الذي لم يُسأل بعد (على حد علمي) هو: ما هو تاريخ كلمة "نكبة" (وليس ما هو تاريخ النكبة)؟ الخطورة هنا أن كلمة "نكبة" - مثلها مثل كلمات عديدة- دخلت عقولنا وتحكمت في تكوين إدراكنا لما حدث ولما يحدث. فما حدث العام 1948 كان، في رأيي، حلقة رئيسية في جريمة بدأ تطبيقها في سايكس-بيكو ولم تتوقف حتى الآن. لذا، فإن إطلاق اسم "نكبة" يعطي الانطباع بأن ما حدث لم يحدث نتيجة تخطيط، وأنه حدث العام 1948 وانتهى. فكثيرا ما تطلق كلمة "نكبة" على كوارث طبيعية مثل زلزال أو فيضان... ذكرت سابقاً مثالاً آخر يحدد إدراكنا في قضية مهمة، وهو الإدراك المتعلق بالتفسير السائد حول المشكلة الجوهرية في التعليم، ألا وهو "التلقين"، بينما تكمن المشكلة في الواقع في صلب فكرة التعليم الرسمي، ألا وهو السيطرة على العقول.[10]

جزء مهم من مقاومة "مالكوم إكس"، الأمريكي الأسود، الذي حارب العنصرية طوال حياته، تجسد في عبارته: "السواد جميل"، وهي عبارة تتناقض كلياً مع ما حاول البيض تجذيره في السود عبر العصور، من أن السواد قبيح. كذلك، كانت مقاومة السود للبيض في كثير من الأحيان عن طريق الموسيقى والرقص والغناء، التي حافظت على وجودهم وبقائهم وشخصيتهم. أول عملية ناجحة في سلبهم ما لديهم كانت عن طريق إدماجهم في النمط الاستهلاكي في العيش، وهو ما يحدث حالياً للفلسطينيين عن طريق الديون. كذلك الحال بالنسبة للهسبانيين في الولايات المتحدة الأمريكية (الذين ينحدرون من جذور مكسيكية أو كوبية)، إذ أنهم يُعتبرون أكبر خطر على أمريكا، حسب كتاب لـ"صامويل هنتنجتن" صدر بعد كتابه **صراع الحضارات** (وهو الشخص نفسه الذي كان يعتبر الإسلام الخطر الأكبر). أما السبب الذي جعل "هنتنجتن" يغير رأيه ويعتبر الهسبانيين الخطر الأكبر، فيكمن في الخطر الثقافي، في استمرار الهسبانيين العيش حسب تقاليدهم التي يعشقونها، ورفضهم العيش حسب مبدأ التنافس، ورفضهم تعلّم اللغة الانكليزية....

أنواع التمزيق والتخريب في الوضع الحالي

أخطر أنواع التمزيق والتخريب في الوضع الحالي يكمن في تحويل الناس إلى مديونين،[11] لذا، فإن التحدي الرئيسي هو مقاومة النمط الاستهلاكي في العيش.

بعد فشل كل المحاولات لتمزيق الشعب الفلسطيني والسيطرة عليه، يتم اللجوء حالياً إلى أفعال محطمة للناس والمجتمعات: تحويل الناس إلى مديونين، إلى عبيد للبنوك تحت الادعاء برفع مستوى المعيشة. وهو طريق يحقق ثلاثة أهداف: أولاً، إغراق الناس في نمط الاستهلاك في العيش؛ وثانياً، تحويل المجتمع إلى فئتين، الأولى مكونة من 5 - 10% تعيش ضمن غنى فاحش، والباقون معدمون؛ وثالثاً، نهب خيرات البلد ومدخرات الناس وتحويلها إلى مراكز رأس المال في الخارج. لم تكن الأديان ساذجة عندما رأت في هذه العملية خطورة ما بعدها خطورة، تجسدت في محاربة الإسلام والمسيحية للربا. فالربا في الإسلام من المحرمات، ونقرأ في المسيحية أن المرة الوحيدة التي لم يُدِر فيها السيد المسيح خده الآخر بل حمل سوطاً، كان لطرد المرابين من الهيكل. كانا يعلمان (على الرغم من صغر سن رأس المال عندئذ) أن هذا الطريق محطم للناس والمجتمعات. تُرى، ماذا حدث بحيث نحتضن اليوم ما حاربه النبي العربي والنبي الفلسطيني قبل آلاف السنين؟!

إن تكاثر البنوك كالأرانب في رام الله ما هو إلا مظهر من مظاهر محاولة هزيمة المجتمع من الداخل. من الضروري أن لا تخدعنا الأسماء التي تختارها البنوك، والتي تبدو على السطح "وطنية" وتعكس "الهوية الفلسطينية" إلى أبعد الحدود، وتحاول أن تنسينا أن طبيعة البنوك هي نفسها بغض النظر عن الأسماء. المشكلة الكبرى تكمن في أن مقاومة وضع سياسي أو عسكري أسهل من مقاومة هيمنة البنوك أو التعليم أو الأدوية أو الإعلام، ولكن هذه بالضبط هي القضية التي من الضروري البحث فيها ومقاومتها في المرحلة الحالية والمستقبلية.

من باب التلخيص

قلت إن المقاومة تعرج على ساق واحدة: مقاومة ما يجري على الأرض وعدم مقاومة ما نُقصفُ به من أنماط في الفكر والعيش والإدراك والتعامل، فيما يتعلق بالتعليم وهدر الماء وتغييب معارف الناس وفنونهم، وما يتعلق بتخريب التربة، وكيفية معالجة فضلات الإنسان، وما يتعلق بالإدراك والكلمات والمعاني، التي تشكل جميعها تجسيداً لنمط الاستهلاك في العيش، الذي هو الأساس لفقدان القدرات والمقومات عن طريق هيمنة مؤسسات ومهنيين وخبراء على مختلف نواحي الحياة؛ أي، عندما نعتقد أن التعلم لا يحدث إلا من خلال مدارس ومناهج ومدرسين، وأن الشفاء لا يتم إلا من خلال أدوية ومستشفيات، وأن اللعب لا يسلّي إلا من خلال مباريات وفوز، وأن التخلص من فضلات الإنسان لا يتم إلا عن طريق شبكات مجارٍ، وأن ما يحدث في العالم يتم نشره عن طريق التلفزيون.

مثلاً، بالنسبة للإدراك: الترهل لم يبدأ في السياسة وإنما في الثقافة؛ بدأ عندما زُرعت أول مدرسة في فلسطين وألغت رأساً معارف الناس وفنون الناس واحتقرت طرقهم في العيش؛ أي عندما أصبحت قيمة الشخص ترتبط بنتيجة امتحان يصدر في لندن. أما تغيير اسم الامتحان ليصبح "توجيهي" أردني أو فلسطيني أو مصري، فما هو إلا ذرّ الرماد في العيون، ومن باب الإلهاء، إذ لم يترك الإنكليز فلسطين إلا بعد أن ضمنوا أن المتعلمين من الفلسطينيين هم إنكليز في أفكارهم وأذواقهم وإدراكاتهم وتعابيرهم ومعانيهم. خلال جدال حاد بين غاندي ونهرو، صرخ نهرو غاضباً: "أليس هدفك هو إخراج الانكليز من الهند؟" ردّ

غاندي: "الهند مكونة من شعوب عديدة، فمن يرغب من الإنكليز البقاء في الهند فليكن. خوفي أن يخرج الإنكليز وتبقى مؤسساتهم". لا توجد أية مقاومة للمؤسسات التي خلّفها الإنكليز في فلسطين، بل على العكس ما زلنا نلهث وراءها وكأنها المنقذ الأكبر.

وأخيراً وليس آخراً، أود أن أقول إن من أهم ما يمكن القيام بها حالياً هو استخراج الأشكال العديدة والغنية والمبدعة والملهمة من المقاومة خلال الفترتين اللتين أعتبرهما أكثر الفترات إلهاماً، ألا وهما عقد السبعينيات والانتفاضة الأولى، التي كانت مقاومة مبنية على ما كان متوفراً لدى كل الناس، بما في ذلك العيش كمجتمع أدار شؤونه خلال سنوات عديدة على الرغم من كل الظروف والمعيقات.

منير فاشه
أستاذ زائر، ومدير "الملتقى التربوي العربي"
مركز دراسات الشرق الأوسط/ جامعة هارفارد
mfasheh@yahoo.com
www.almoultaqa.com
www.aljami3ah.com

الهوامش

[1] أود أن أذكر ملاحظتين هنا؛ الملاحظة الأولى: من المفيد قراءة مذكرات واصف جوهرية (الكتاب الثاني) للتعرف على ما فعله الإنكليز عندما دخلوا فلسطين، والملاحظة الثانية تتعلق بتسمية الحرب بين العامين 1914 و1918 حرباً عالمية، إذ في الحقيقة كانت حرباً أوروبية، وتسميتها حرباً عالمية هو مثال على أن مرجعية كثير من الكلمات التي نستعملها هي أوروبا.

[2] توحي كلمة "جار" بالقرب والاطمئنان، إلى جانب القبول والتفاهم المسبقين.

[3] انظر، مثلاً: "القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية"، لـ"واصف جوهرية"؛ من منشورات مؤسسة الدراسات المقدسية، حيث يقول واصف (صفحة 286): "كنا نحن معشر أبناء القدس على اختلاف مذاهبنا نعيش عيشة عائلية لا فرق بين مسلم ومسيحي زمن الحكم العثماني. ولكن عندما صار احتلال بريطانيا للقدس . . . جربت تعكير الجو الصافي، وخصوصاً بين المسلمين والمسيحيين . . . منعت دخول المسلمين لكنيسة القيامة، وكذلك منعت المسيحيين من دخول الحرم . . . ".

[4] من الضروري التمييز بين حدود يضعها الناس (وهذا أمر طبيعي في معظم المجتمعات) وحدود تضعها سلطات.

[5] من هذا المنطلق، فإن المشكلة الجوهرية في التعليم هي التمزيق والسلب (التي تقع في صلب فكرة التعليم الرسمي)، وليست فكرة التلقين التي نسمعها باستمرار، والتي ما هي في الواقع إلا إلهاء عما هو أعمق: التمزيق والسلب.

[6] أغلبنا ينظر إلى المسطرة الخشبية التي يستعملها بعض المعلمين لضرب الطلبة كعمل عنيف، بينما لا يرى العنف الأعمق الناتج عن المسطرة التي نقيس بواسطتها قيمة الطفل.

[7] انظر المقال المشار إليه في هامش رقم 8 لاحقاً.

[8] حالياً أنا عضو في اللجنة المشرفة على رسالة دكتوراه جميلة شنان التي تبحث فيها ما كتب في تلك الفترة، وهو ما نبهني إلى ما قلته.

[9] انظر مقالي: http://www.almoultaqa.com/ar20.aspx

[10] انظر: Ivan Illich، Shadow Work (Chapter 2)

[11] ما يجري في أمريكا حالياً – حيث يفقد ملايين الأمريكيين بيوتهم لعدم قدرتهم على تسديد ديونهم للبنوك – يعكس هذا الوضع الذي يُقدَّم للفلسطينيين حالياً على أنه نعمة!

من مساق "التعبير والرسوم".